مراجعة كتاب:
قراءة داروين في الفكر العربي ١٨٦٠- ١٩٥٠

أيمن عيسى(*)

الكتاب	قراءة داروين في الفكر العربي ١٨٦٠- ١٩٥٠
المؤلفة	مروة الشاكري
ترجمة	محمد سعد كامل
الناشر	مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى ٢٠١٧، الصفحات: ٥٩٠.

يُعالج هذا الكتاب - من خلال منهج وصفي تأريخي- تأثير الداروينية في الفكر العربي الحديث على مستويات عدة: فكرية، ولاهوتية، واجتماعية، وسياسية. وهو يقرأ تفسيرات الداروينية واستلهاماتها المتنوعة في ذلك الفكر من خلال السياقات التي شكلت أطر التفكير فيها. وهذه القراءة تتخذ من «حركة الترجمة» (Translation) مدخلا، وهو مدخل لا ينظر إلى داروين باعتباره نموذجًا تقاس على ضوئه القراءات التالية له وإنما باعتباره جزءًا متسعًا من المعاني والإحالات؛ أي إن الهدف هو تعقب شبكة المعاني التي انبثقت عن هذه القراءات المتنوعة. ولقد تناولت هذه الدراسة روادًا وأسماء كثيرة مثل: يعقوب صروف، وفارس نمر، وشبلي شميل،

(*) مدرس مساعد بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر. البريد الإلكتروني:
Aymaneissa5@gmail.com

وحسين الجسر، والإمام محمد عبده، وسلامة موسى، وإسماعيل مظهر وغيرهم. وقد حُلِّلت تلك القضية في مقدمة، وسبعة فصول، وخاتمة على النحو الآتي:

المقدمة:

أوجزت المقدمة أفكار الكتاب ومحاوره الأساسية؛ فتناولت محاولة «**تفسير شهرة الداروينية**» وبيان تأويلاتها المتعددة التي دفعت أصحاب الديانات إلى التوفيق بينها وبين معتقداتهم. وتناولت بعض الأفكار المهمة التي شاعت في النهضة المعاصرة؛ مثل فكرة «الحضارة والنهضة»، وكيف أن القراءة حول التفوق الحضاري الأوروبي دفعت إلى الرجوع إلى الأمجاد الحضارية بأسلوب جديد، واعتناق نظرية النشوء باعتبارها عقيدة التقدم. ومثل فكرة «التقدم والتربية» حيث اعتُبرت التربية مفتاح التقدم والإصلاح، وظهر تأثير هربرت سبنسر في هذا المسلك. وبينت كيف أحيت الداروينية «اللاهوت الطبيعي» في الفكر العربي، وكيف تسبَّبت في إعادة النظر في مفهوم الدين نفسه. هذا غير بيان دور الترجمة، والكيفية التي نوقشت بها أفكار داروين في الفكر العربي من خلال إلباس المصطلحات الجديدة ثوب القديمة. وكشفت المقدمة في إطار «سياسة التطور» عن توجهات القراء وأهدافهم التي تراوحت بين السعي في التحرر من الثيوقراطية، ونفي جدوى الأديان. وتأييد الاحتلال، والانتصار للاشتراكية الفابية. مع بيان أن القاسم المشترك بين هؤلاء جميعا كان الإيمان بمبدأ «التدرج» الذي يُقصد به الاقتناع بالتوافق النفعي مع السلطة القائمة. وأخيرا ميزت الباحثة بين جماهير الداروينية في القرن ١٩ والجماهير المضادة في القرن العشرين، وهو تمييز استند إلى ضحالة التعليم وضعفه، وإلى التحولات التي نجم عنها سخط القراء على إخلاف الوعود التكنوقراطية والسياسية التي قُطعت في الماضي. وهذا التمييز ساعد - كما رأت - على فهم جاذبية مذهب داروين وأسباب تراجعه في المدة الزمنية التي اختارتها.

إنجيل العلم

عني هذا الفصل برصد نشأة الداروينية وظهورها في السياق المسيحي الذي مثلته الكلية السورية الإنجيلية، ومجلة «المقتطف» التي حملت على عاتقها الترويج للمذهب. وذلك في تسعة محاور.

تمحَّضت المحاور الثلاثة الأولى للكشف عن جهود المقتطف في الترويج لآراء داروين، ومتابعة السِّجال العلمي حولها، والدفاع عنها، وربطها بأخلاقيات التقدم الحديثة. هذا مع بيان سبب إيمان محرري المجلة بالنظرية، والخلفية التي شكلت فهمهما لها.

أما المحاور الثلاثة التالية؛ فقد خصصت للكشف عن جهود التبشير المسيحي البروتستانتي في الترويج للداروينية عن طريق إنشاء المدارس، والمطابع، والصحف، وتكوين الجمعيات العلمية. هذا فضلا عن الدور الكبير الذي لعبته الكلية السورية الإنجيلية بمناهجها العلمية. أشار المحور السابع إلى رد فعل الكاثوليكي على تلك التوجهات البروتستانتية، وما أسفر عنه من تأسيس جامعة القديس يوسف، وإنشاء مجلتي: «البشير» و «المشرق» لمواجهة ما تثيره المقتطف. أما المحوران الأخيران فقد عرضا للأزمة التي حدثت بالكلية السورية الإنجيلية عندما ألقى إدوين لويس خطابا أثنى فيه على داروين بعد موته؛ فأعرب المسئولون عن قلقهم الشديد من تلك الأفكار. وأحدث خطاب لويس سجالا في مجلة المقتطف فُصل على إثره من الكلية، وحُرم يعقوب صروف وفارس نمر محررا المقتطف من الترقية بها. وقد ألقت هذه الأزمة الضوء على تزايد القلق بشأن العلاقة بين العلم والدين بالكلية.

التطور والمسألة الشرقية

تابع هذا الفصل الدور الحيوي الذي لعبته الصحافة إزاء نظرية التطور، خاصة مجلة المقتطف وجهود محرريها النشطين بعد انتقالهما إلى القاهرة حيث مزجا في المرحلة الجديدة بين التوجه العلمي والتوجه السياسي، وجاءت المتابعة في سبعة محاور.

عُنيت المحاور الثلاثة الأولى بتطور الصحافة والطباعة، وظهور عدة صحف إلى جانب المقتطف نجحت في القيام بدور المعارضة والأحزاب، مع الإشارة إلى الدور الكبير الذي لعبه المهاجرون الشوام في حركة الصحافة المصرية، وبيان جهود محرري المقتطف بعد الانتقال إلى القاهرة، ورواج مجلتهما وإنشائهما جريدة «المقطم» وجريدة «السودان» وهما جريدتان غلب عليهما التوجه السياسي المتعاطف مع الاحتلال، وكان لهذا التوجه مردوده السلبي على المقتطف نفسها.

أما المحاور الثلاثة التالية فقد عرضت لأهم القضايا التي عُولجت على صفحات المقتطف، وهي قضايا ذات اتصال وثيق بآراء داروين. كشفت القضية الأولى عن الاهتمام البالغ بآراء سبنسر وفلسفته التربوية. والاهتمام بمقاله (الكائن الاجتماعي) الذي أحدث انتقالة من نواميس علم الأحياء إلى نواميس ارتقاء المجتمع. ولقد منحت أفكاره المقتطف أداة قوية لتُقدم أفكارها عن قيام الحضارات وانهيارها. وأثارت المقتطف من خلال هذا واحدة من أبرز القضايا الجيوسياسية وقتها، وهي «المسألة الشرقية». كانت المسألة الشرقية هي القضية التالية التي احتدم فيها النقاش على صفحات المقتطف والهلال، حيث عرضت مسألة العرق وتفسيرات العلماء البريطانيين العنصرية لها؛ وهي تفسيرات كانت تتغيا تسويغ تسلطهم على السودان. ولعبت ترجمة كتاب «سر تقدم الإنجليز السكسونيين» لديمولان -الذي أثنت المقتطف على ترجمته- دورا في هذا السجال؛ فقد دعم الكتاب موقف المحررين المعروف من السيادة الإنجليزية لتطرقه إلى أسباب تفوق الإنجليز ونسبته إلى قدرتهم على المباراة في تنازع البقاء. ومن القضايا التي

ولعبت ترجمة كتاب «سر تقدم الإنجليز السكسونيين» لديمولان -الذي أثنت المقتطف على ترجمته- دورا في هذا السجال؛ فقد دعم الكتاب موقف المحررين المعروف من السيادة الإنجليزية لتطرقه إلى أسباب تفوق الإنجليز ونسبته إلى قدرتهم على المباراة في تنازع البقاء.

عُرضت بالمقتطف مسألة «تقدم الشرق» وما حققته اليابان في تجربتها النهضوية.

حيث ركزت على انفتاح اليابانيين على تعلم العلوم وإتقانها، وبينت كيف أنهم ساروا على نهج سبنسر في التربية الشاملة، وتنمية الصناعة، وفصل الدين عن الدولة.

أما المحور الأخير فقد كشف عن تأييد المقتطف والمقطم سياسات الإنجليز. وحاول المحرران تفسير حق بريطانيا في احتلال مصر؛ فكان موقفهما متناقضا؛ لأنهما من مناصري سبنسر وهو من المحرضين على الشوفينية البريطانية، ولأنهما حرصا على نصح اليابان بتجنب المواجهة مع القوى الغربية حتى لا تتمكن من بلادهم.

المادية ومنتقدوها

عالج الفصل النزعة المادية التي شاعت وأُلصقت تهمتها بالداروينية، وكان من أبرز أعلامها شبلي شميل. والفصل يكاد يكون تسجيلا لمسيرة شميل، وأفكاره، وسجالاته، وذلك في تسعة محاور.

سجَّل المحور الأول الشرارة الأولى التي تعرف بها القراء العرب على رؤية مادية جديدة لنظرية النشوء كان مبعثها مقال نشرته المقتطف في ١٨٧٨ يدحض نظرية التولد الذاتي؛ إذ استفز المقال شميل فكتب ردا موسعا دفاعا عنها.

أما المحاور الأربعة التالية ففيها عرض لمسيرة شميل العلمية والفكرية، وعناية بترجمته المشهورة لكتاب بخنر الذي شرح فيه مذهب داروين. وهو كتاب أثار جدلا واسعا، وأثَّر في طائفة كبيرة من المفكرين العرب فيما بعد. وقد أثنى شميل على داروين الذي كان سندا علميا قويا لفلسفته المادية. وعرضت المحاور لما أسماه شميل بالتاريخ الطبيعي للدين، فهو يرى أن براهين داروين تصح على الأديان كما تصح على الأنواع، وخلص منها إلى أن الدين خرافة؛ لأنه يفتقد إلى الدليل العقلي؛ ولأنه نتاج الخوف والخيال. ونادى شميل بإبراز الهوية المدنية للدولة العثمانية. وكان التاريخ الطبيعي عنده وسيلة للنقد السياسي والاجتماعي بالدرجة الأولى.

أما المحاور الثلاثة التالية؛ فهي ترصد السجال الذي دار حول مادية شميل والانتقادات التي وجهت له؛ فقد أثنت المقتطف على ترجمته؛ لكنها تحفظت على أفكار بخنر لأنها محض كفر. وهي النتيجة التي توصل لها إبراهيم الحوراني في سجاله معه، وخلص الحوراني إلى أن مادية شميل تتعارض مع داروين من الجانب الديني؛ لأن داروين لم ينف وجود الإله. ومن الانتقادات التي طالته بصورة ما ما جاء في رسالة «الرد على الدهريين» للأفغاني.

كشف المحور الثامن عن دعوة شميل لدين طبيعي سماه دين البشرية؛ إذ رأى أن علوم الطبيعة لا علوم الدين هي التي من شأنها توحيد الأمم ونشر الإنسانية. أما المحور الأخير فكشف عن أن مادية شميل لم تحظ بالذيوع في الأقطار العربية لما رُميت به من الكفر والراديكالية. وتؤكد الباحثة أن شميل رغم ما رمي به من الكفر؛ فإنه لم يتخل عن احترامه للدين.

وعندما مات شميل أدار رفاقه ظهورهم لفلسفته، وأقبلوا على فلسفة وضعية لمذهب النشوء غير أنهم أقبلوا على نزعته الجماعية. وهو إن باءت محاولاته في كسب تأييد القراء للمادية النشوئية بالفشل؛ فقد تسنى النجاح لاشتراكيته النشوئية.

اللاهوت الطبيعي

تناول الفصل ردود الفعل اللاهوتية على المادية الراديكالية من خلال رد جاء من خارج أسوار الكلية السورية الإنجيلية، وهو للشيخ حسين الجسر، وذلك في ثمانية محاور.

عُنيت المحاور الخمسة الأولى بالتعريف بالجسر ورسالته الحميدية التي نشرت في ١٨٨٨ ومصادره التي استقى منها. وتمثلت عناصر الجدة بهذه الرسالة التقليدية في سلوكها مسلك الحوار المصطنع بين مؤمن وبين مادي نشوئي، وفي القول بعدم تعارض الأفكار النشوئية مع النص القرآني. أما عن مصادره فقد نسبت الباحثة بعضها إلى أصول مسيحية، وإلى تقارير المقتطف، وكتابات الحوراني، وفرنسيس مراش. وتوقفت الباحثة عند تأثير مراش الواسع بكتابه: (شهادة الطبيعة في وجود الله والشريعة) الذي ركز فيه على الجذور الروحية للخطاب المبني على العقل، واستعمل فيه حجج التصميم الذكي. وأبانت عن بعض أوجه الاتفاق بينه وبين الجسر.

أما المحاور الثلاثة الباقية فارتكزت على مناقشة نظرية النشوء وموقف الشريعة؛ فالجسر رأى أن نظرية النشوء ليست خاطئة وإنما تفتقد إلى الأدلة الكافية. وأن هناك بعض المسائل التي يمكن قبولها بأسباب عقلية ومنطقية. وتُظهر المحاور كيف أن الرسالة كشفت عن الحاجة إلى إيجاد علم جديد للكلام. وكشف الجسر عن قناعته بأن للعقل حدودا لا يمكنه تجاوزها، وأنه لا داعي للمغالاة في التفكير الحر الذي يحمل الإنسان على وجود الأشياء التي تعجز الحواس أو العقل عن إدراكها مثل المعجزات والخوارق.

داروين والمفتي

اختص هذا الفصل بالوقوف على أثر الداروينية في فكر الإمام محمد عبده، وذلك من خلال ١٤ محورا.

تُبين المحاور الخمسة الأولى تأييد الإمام لحداثة الإسلام، وميله إلى العلم والتفكير

العقلاني مما ساعده على إرساء أساليب جديدة في التفسير والمواءمة بين المعرفة العلمية الحديثة وبين النصوص الدينية.

وأن علاقة الإمام بالنشوء علاقة بلاغية فحسب؛ لأنه لم يكترث بما استجد في العلوم قدر اهتمامه بقدرتها على الإسهام في إثراء المناخ اللاهوتي والتربوي في العالم الإسلامي. كما تكشف المحاور عن دور السياسة في تكوين أفكاره، وخيبة أمله في قدرة العثمانيين على مجابهة الاستعمار مما دفعه إلى توفيق أوضاعه مع الإنجليز. هذا مع الإشارة إلى محاولاته الإصلاحية في التربية التي كانت تتغيا حماية المسلمين من التغريب.

وتكشف رسالة «التوحيد» التي أسهمت في إرساء برنامجه وأفكاره اللاهوتية عن تأثير الداروينية فيه. والإمام في استعراضه سنن الطبيعة في مواضع من تفسيره لم تعترضه صعوبة في التوفيق بين المبادئ الحديثة للنشوء والوحي المنزل؛ بل أفاد منها في جانب الارتقاء الاجتماعي وهو الجانب الذي كان منشغلا به. ولقد كان على قناعة بالانسجام بين العلم والكتاب، كما حرص على إثبات توافق الإسلام مع العقل، وألح على مسألة العقل والنقل.

وكان هذا مما أسهم في ظهور التفسير العلمي للقرآن، وأسهم أيضا في تمهيد الطريق لعلم كلام جديد.

والإمام في استعراضه سنن الطبيعة في مواضع من تفسيره لم تعترضه صعوبة في التوفيق بين المبادئ الحديثة للنشوء والوحي المنزل؛ بل أفاد منها في جانب الارتقاء الاجتماعي وهو الجانب الذي كان منشغلا به. ولقد كان على قناعة بالانسجام بين العلم والكتاب، كما حرص على إثبات توافق الإسلام مع العقل، وألح على مسألة العقل والنقل.

أما المحوران التاليان فيكشفان عن تصديه لبعض الأفكار العنصرية والاتهامات التي وُجهت للإسلام من قبل بعض المستشرقين مثل هانوتو، وبعض المحليين مثل فرح أنطون. وهي اتهامات دارت في فلك تمييز الأوروبيين على مستوى الجنس والدين عن العرب، والقول بتفوقهم على العرب وتفوق المسيحية على الإسلام. أما المحور التالي فقد تناول موقف الإمام من التربية والتعليم، ونقده للطرق التقليدية في التدريس، وتأثره بسبنسر.

أما المحاور الأربعة التالية فقد عرضت لمحاولات إصلاح الأزهر، والهجوم الذي نال الإمام جراء جهوده الإصلاحية؛ إذ انتقد الإمام الأزهر انتقادا مرا، وهوجم أيضا بسبب جهوده لبناء علم الكلام واصطباغها بالفلسفة والفكر العلمي المعاصر. وكان ممن رموه بالابتداع والهرطقة الشيخ عليش المالكي. وحين ولي الإمام منصب الإفتاء لاقى عنتا شديدا من القصر، ومن معارضيه، ومن الإنجليز الذين تقاعسوا عن دعم مشروعه الإصلاحي الذي ربطه معارضوه بولائه السياسي المشبوه. وممن هاجموه الشيخ يوسف النبهاني. ولم يدافع عن الإمام إلا جريدة المقطم القريبة من الاحتلال فما عاد عليه دفاعها إلا بسقوطه في نظر منتقديه.

في المحور الأخير بيان لإرث الإمام الذي اتسم بالتنوع والتباين مما أكسب رؤيته معجبين كثرًا في العالم. ولقد طُبقت كثير من أفكار الإمام بعد رحيله بشكل تدريجي فأُدرجت العلوم الحديثة في مناهج الأزهر. وصار للإمام ورثة من شيوخ الأزهر اللاحقين مثل الشيخين المراغي وشلتوت. ولعب بعض تلامذته دورا بارزا في الحركة الوطنية مثل سعد زغلول.

الاشتراكية النشوئية

تناول هذا الفصل ما عُرف بالاشتراكية النشوئية عند المفكرين العرب أمثال فرح أنطون، وشبلي شميل، ومصطفى المنصوري، وسلامة موسى وغيرهم، وذلك في عشرة محاور.

اتضح هذا الاتجاه أولا في رواية فرح أنطون: (الدين والمال والعلم) إذ بث فيها كثيرا من المبادئ الاشتراكية. وعكست الرواية انهيار الاعتقاد في النزعة الفردية، والنفعية، وسياسة اليد المرفوعة التي آمن بها النشوئيون الأُول.

كشفت المحاور الثلاثة الأولى عن السياق الزمني والسياسي الذي ظهرت فيه الاشتراكية النشوئية، وعن الخلط في معانيها في بادئ الأمر. وعن نشاط العرب في الخارج الذي تمثل في الانضمام للجمعيات والحركات اليسارية والفابية، وإنشاء الجمعيات الاشتراكية، هذا فضلا عن تغطية الصحف المحلية لأخبار الاحتجاجات والنشاط العمالي بالخارج. ورصدت المحاور تحول النشوئيين من مناصرة النزعة الفردية إلى النزعة الجماعية؛ فبعد الطعن في الاشتراكية،

ورفض عنفها الثوري غيرت المجلات العربية لهجتها نحوها إثر نجاحها البرلماني في أوروبا، وتزايد دعم المثقفين لها.

أما المحور الرابع فقد نبه على أن شبلي شميل كان من أوائل الذين كتبوا في الاشتراكية النشوئية، وأنه تجنب الحث على التحرك الثوري. وأنه كان يرى في الاشتراكية مظلة دلالية لبرنامج الإصلاح الاجتماعي أكثر من كونها فلسفة ثورية. وهي عنده تعتمد على مبادئ العلوم الطبيعية منذ القدم، ولا تنتشر في مجتمع إلا إذا انتشرت هذه المبادئ. وأما المحور الخامس فتعرض للاشتراكية في إطار مسألة «التقدم والفقر» من خلال مناقشة الإمام محمد عبده لهذه المسألة، ومن خلال كتابات مصطفى المنصوري الذي ترجم كتاب «التقدم والفقر» لهنري جورج الذي أرجع فيه هنري الفقر إلى احتكار الأرض من قبل قلة. وفي كتاب (تاريخ المذاهب الاشتراكية) بدت ميول المنصوري الواضحة للاشتراكية النشوئية. اقتصرت المحاور الخمسة الباقية على جهود سلامة موسى واشتراكيته الفابية وتحولاته الفكرية؛ فقد نشر موسى في المقتطف عدة مقالات في الاشتراكية يُعرف بها ويُدافع عنها. وطالب ببرنامج راديكالي للإصلاح الاجتماعي والبيولوجي تُشرف عليه الدولة، وهو برنامج ترقية النسل؛ ونبه على أخطار الزواج من الزنوج. وهي دعوة انتقدتها المقتطف لتطرفها؛ لكن موسى تمسك بها بحجة أن العلم قد أثبت أن عقل الزنوج أشبه بعقل القردة. وقد كان موسى حذرا من البلشفية فلم يُلصق اسمه بها خاصة عندما انهزمت. وظل على فابيته، وأسس أول حزب اشتراكي؛ لكن سرعان ما دب الخلاف بين عناصره بسبب التوجهات الثورية لبعض أجنحته، وانتهى الأمر بمغادرته إياه وتنصله من توجهاته. ورصدت المحاور تحولات موسى وتقلباته الفكرية؛ فبينت بعض أفكاره التي ظل متمسكا بها مثل الفابية، وبعض تحولاته التي تمثلت في موقفه من ماركس ومن التغيير الثوري، وفي خيبة أمله في الغرب وفي ألمانيا النازية التي أظهرت ميولا استبدادية، هذا غير موقفه الإيجابي من ثورة ١٩٥٢.

داروين بعيون الترجمة

خصص هذا الفصل لدراسة جهود إسماعيل مظهر باعتباره من أشهر الذين قرأوا داروين. ومظهر أول من ترجم كتاب أصل الأنواع ترجمة كاملة

قامت الباحثة بمقارنتها بالأصل، وعرض إشكالاتها، وكشف بعض المصطلحات التي أثرى بها مظهر العربية، واستراتيجياته التي اتبعها، وذلك من خلال ثمانية محاور.

انشغلت المحاور الثلاثة الأولى بقضية الترجمة عند مظهر، وكشفت عن قناعته بقوة العلم والتربية في تعزيز نضج الأمة، وعن أنه كان من الجيل الذي حمل لواء الفلسفة الوضعية العلمية، والتطور الثقافي، والتقدم الاجتماعي باسم الداروينية. وتعرضت لمقدمة مظهر التي أرخ فيها للفكر النشوئي وأصَّله عند العرب مما يدل على أن قراءة داروين كانت جزءا من عملية أكبر من النصوص الشارحة؛ فقراءته صاحبت تجدد الاهتمام بكلاسيكيات الأعمال العربية التي شكلت الركيزة اللغوية والمفاهيمية التي انبثقت منها ترجمات وتفسيرات نصية جديدة، كما ساهمت أيضا في تبني فروع العلم الجديدة.

وتعرضت المحاور لمقدمة الترجمة الثانية التي اتسعت دائرتها لتعالج تطوير العربية، وتطوير خطابها العلمي. أما المحور الرابع فأشار إلى التزام مظهر بالفلسفة الوضعية المتعالية، ومن هنا تبنى منهجا وضعيا في البحث في المسائل الغيبية، وأبدى اهتماما بالدمج بين المادة والعقل كما في ترجمته لكتاب سينوت (حياة المادة). قضى مظهر عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين في التصدي لمن يربطون بين النشوء وبين المادية والإلحاد خاصة في كتابه: (ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء) وأكد أن الأفغاني وشميل كلاهما أخطأ فهم المادية، وشكك في قراءتهما داروين.

وضَّح المحور الخامس أن اهتمام مظهر بتاريخ الدين كان يستهدف تطور وظيفته الاجتماعية لا الخوض في تفصيلاته. وأنه أكد -مثل أبناء جيله- أهمية النظر إلى الشق الجماعي في نظرية التطور. أما المحور السادس فكشف عن تمييز مظهر بين الشرق والغرب حيث إن العقلية الأوروبية الحديثة عقلية متمدينة بخلاف العقلية الآسيوية، وهو مفهوم ارتبط بنظرة نشوئية استلهمها من «كونت» ترى أن الشرق لم يبرح الأسلوب الغيبي. وكان يرجو أن يهجر العرب المباحث الغيبية البحتة، وأن يتبنوا الفلسفة الوضعية

المتعالية بجانب تحديث التعليم. في المحور السابع بيان لخفوت منهج مظهر في الكتابة العلمية، واتجاهه إلى السياسة بعد إنشاء مجلة العصور في ١٩٢٧ حيث جاءت تحليلاته السياسية مجردة تتحدث بلغة النشوء والارتقاء. وهاجم البلشفية، وتوقع فشل الاشتراكية. وفي المحور الأخير بيان لمواصلة مظهر الدعوة لنظرية التطور، وبيان لتحولاته؛ إذ عبرت مقالاته عن تجدد ثقته في العرب وحضارتهم. وتبنى فكرة التضامن العربي التي عارضها من قبل. كما عني عناية كبيرة بمستقبل اللغة العربية. وفي رحاب ثورة ١٩٥٢ نشر عدة كتب كشفت عن توجهه الجديد في تأييد الإسلام ورفض الشيوعية.

الخاتمة:

أشارت الخاتمة إلى تصدر داروين في التسعينيات من خلال كتاب الدكتور عبد الصبور شاهين (أبي آدم) وفيه يدلل شاهين على أن خلق الإنسان مر بمراحل عدة: الأولى الخلق من الطين، والثانية تصويره إنسانا. والثالثة تكملة الخلق النفسي بنفخ الروح. وميز شاهين بين كلمتي البشر والإنسان اللتين وردتا بالقرآن؛ فالأولى تشير إلى جميع أنواع البشر ويدخل فيها إنسان الغاب؛ أما الإنسان فهو التعريف الحقيقي الوحيد للإنسان العاقل. وهو ما يعني أن فصيلة البشر تطورت بمرور الزمن حتى اكتملت بالإنسان العاقل. ولقد استعمل شاهين في ذلك الأدلة الجيولوجية والأنثروبولوجية بصورة عامة. ورغم هذا حرص على فصل تصوره عن الداروينية، وهو ما دعا الباحثة إلى السؤال عن كيفية تصنيف هذا الطرح لنظرية الخلق في ظل التأييد الجزئي لداروين. وشاهين لا يرى تعارضا بين العلم والدين، وذلك ما يُبرهن على استمرار قوة الإطار المرجعي الذي غذى قراءات الداروينية في الفكر العربي.

أكدت الباحثة أنه منذ السبعينيات والموقف من الداروينية ثابت بتنوعاته واختلافاته، لم يطرأ عليه جديد؛ إذ لم يعد التوفيق العقلاني بين العلم والدين يشغل النخبة المثقفة. ولقد استبدلت الحداثة الليبرالية الجديدة وما سُمي بسياسة الطريق الثالث بمذهب النشوء، وودَّعت المقتطف قراءها بعد ثورة يوليو، ورحل أعلام الجيل الثاني من الكتاب العلميين أمثال سلامة موسى ومظهر، وطرق الناس أبوابا جديدة في قراءة الكتابات العلمية الشعبية حتى مع ظهور جيل جديد من العلماء الأكفاء وازدهار المؤسسات العلمية.

تعقيب:

تتنامى هذه الدراسة الأكاديمية المميزة في سياق الدراسات المعنية بفكر النهضة ونقدها، مثل دراسات ألبرت حوراني، وهشام شرابي، وعادل زيادات وإخوان هذا الطراز. ويميزها اعتمادها على التأريخ والوصف المحايد -إلى حد كبير- وحرصها على التحليل الاجتماعي والسياسي. كما أنها ارتكزت على مجلة المقتطف التي اتخذتها بؤرة تنطلق منها حركات تلقي الداروينية كافة وترتد إليها. ولقد أَثْرت الباحثة الدراسة بطائفة كبيرة من الوثائق والنصوص أعانت على كشف خلفيات هذا التلقي، وساعدت على فهم الجذور الإنجيلية للمثقفين العرب على اختلاف أيديولوجياتهم ودياناتهم في مدة البحث.

ولعل هذه الدراسة تجيب عن كثير من أسئلة النهضة التي ما زالت قائمة، وتفتح باب مساءلة النهضة على مصراعيه، بما قدمته من عرض وافٍ، وبما تثيره من إشكالات متنوعة؛ إذ يمكن للقارئ من خلال هذا السرد أن يسعى إلى الوقوف على أمور عدة تتعلق بها؛ مثل البحث العميق في الأسباب التي دفعت بعض رواد النهضة إلى التعاطف مع المحتل والدخول معه في علاقات مشبوهة. ومثل تفسير حالة الانبهار بالنموذج الداروينى والعلم الغربي، وتبني بعض تصورات الغرب العنصرية -أحيانا- فهل يقف وراء ذلك شيوع مفاهيم مثل: النهضة والحضارة، والتقدم والإصلاح، والنهوض والانحطاط أو أن الأمر يتعلق بالتغريب والاستلاب.

وإنْ كان ثمة ملاحظات على الدراسة؛ فإنها لا تعدو أن تكون ملاحظات شكلية يتعلق بعضها بالإطار الزمني القلق الذي اصطنعته الباحثة؛ فهو يحصر القراءة في المدة من (١٨٦٠ إلى ١٩٥٠) والإشكال في أن الظهور الفعلي للداروينية كان في سبعينيات القرن ١٩ كما ذكرت الباحثة (ص ٧٥) وأما الإشارات المبهمة -غير الموثقة- إلى محاضرات عثمان غالب، وكتب مدارس الإرساليات التي حوت إشارات لداروين؛ فهي لا تصلح أن تجعل من هذا التأريخ إطارا لها خاصة أن كتاب داروين نفسه نُشر في ١٨٥٩، والكلية السورية أنشئت في ١٨٦٦ ومجلة المقتطف في ١٨٧٦ فكان الأنسب اتخاذ منتصف العقد السادس بداية له.

وأما عن نهاية الإطار فيتضح -من الدراسة- أن تأثير الداروينية سرى فعليا

إلى ثلاثينيات القرن العشرين ولم يجدّ جديد بعدها؛ لذا عندما استشعرت الباحثة قلق الإطار وعدم صلاحيته لضم محاولة تنتمي إلى تسعينيات القرن العشرين اضطرت إلى إدراجها بالخاتمة. وهذا يحيل إلى التساؤل عن مدى اتفاق دراستها واختلافها مع دراسة الدكتور عادل زيادات المكتوبة بالإنجليزية: (Western Science in the Arab World The Impact of Darwinism ١٨٦٠-١٩٣٠) التي تتفق مع موضوعها، وتختلف عنها في نهاية الإطار الزمني الذي توقف عند العقد الثالث من القرن العشرين.

وتتعلق بعض الملاحظات بأحكام أطلقتها الباحثة ربما لم تكن مسددة فيها؛ إذ شابها غياب الدليل أو التحامل في بعض الأحيان. من ذلك خروجها عن الحياد ورفضها اتهام شميل بمعاداة الدين حتى قالت: «إنه من السذاجة أن تلحق به هذه التهمة» وأتت بشواهد غير موضوعية لا تمت لحقيقة موقفه المعروف من الدين بصلة (ص ٢٣٧، ٢٣٩) ودراستها تحفل بشواهد صارخة تثبت موقفه بوضوح بالغ.

ومما قد يشي بتحاملها على الشيخ الجسر نسبتها إليه القول بأن غلق باب الاجتهاد كان لحماية الدين، وهو كلام غير دقيق؛ لأن الشيخ لم يحرم الاجتهاد ولم ينف جوازه، وإنما ساق الكلام في سياق توجيه كلام من قال به من القدماء، وفي سياق النظر إلى حالة الضعف العلمي المعاصر التي لا يتصور فيها وجود من يستوفي شروط الاجتهاد. ثم قالت: إن الشيخ حرصا منه على الجري على سياسة السلطان أوصى بحماية التفسيرات التقليدية ما لم تقتض الضرورة إعادة تفسير النصوص القرآنية، وأنه لا يُعهد بالتفسير إلا إلى عالم نحرير معترف به رسميا، وعلينا أن نحترس من العلماء الذين ليسوا أهلا للتفسير الذين سماهم «علماء السوق» (ص ٢٨٢). وهذا كلام مرسل فيه خلط واضح؛ إذ ما صلة هذه الاحتياطات المعروفة في التفسير بالجري على سياسة السلطان؟ ربما يكون الكلام قد نُقل نقلا غير دقيق؛ إذ يعسر العثور على موضعه في الرسالة -رغم توثيق الباحثة- كما أنه لا يوجد في الرسالة علماء أسماهم الشيخ بعلماء السوق كما قالت (Ulama al-suq) بل يوجد «علماء السوء» الذين حذر منهم الشيخ (ص١٣٠ الرسالة).